العدد العاشر
اكتوبر (تشرين الاول)
السنة السابعة

No. 10 Oct. 1959
7ème ANNEE

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

منحدر التل ...

قصة بقلم نازك الملائكة

كنا متجمعين في الغرفة الكبرى ، ابي ملتف بعباءته وبيده مسبحته يلعب بحباتها ويردد بين الحين والحين :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

ومن بعيد كانت تأتينا أصوات رصاص متناثر يشتد حينا ثم يخفت . فعلى حدود قريتنا يربض اليهود ، وقد بدا حديث الرحيل والجلاء يصبح جديا بالنسبة لنا . لاول مرة اصبحت جدران بيتنا تبدو لي وكأنها تصمت وتبرد وتدير وجهها عني ... يجب ان نرحل عن قريتنا ، قرية ابي وقرية عامر وسمية وهدى . نرحل الى مستقبل مبهم تخفيه الظلال . يصدق ذلك لنا صوت ابن عمتي البدين كمال وقد عاد منذ دقائق يلهث من قرب الحدود واقسم لنا اقساما مغلظة انه شهد بعينيه سعيد البستاني العجوز قتيلا هو وابنته فاطمة ابشع قتلة . ثم قال لنا بانفعال ان الجيران يجمعون الثمين من مقتنياتهم ويرحلون وسرعان ما سوف تخلو القرية فلا بد لنا ان نتخلى عن كل امل في البقاء . وخطر لي ان كمال يكذب على عادته ، فما ألفنا منه الصدق الا نادرا . غير ان الرصاص الذي كان ينثال من الظلمات كذب املي هذا . وارتفع صوت ابي في لهجة اذعان وتسليم :

ـ لا بد من الرحيل اذن . سمية ؟ هيئي لكل منا بطانية ووسادة فقد نضطر الى ان ننام في الحقول .

ورأيت وجه سمية يشحب ولكنها لم تتكلم . المشكلة دائما هي مشكلة اختي الصغرى هدى التي صاحت بلهجة متأججة :

ـ بابا ، او حقا ؟ هل سنرحل ..؟

واجابها ابن عمتي بلهجة قاطعة وصريحة :

ـ طبعا ترحلون ، لا مفر من ذلك . ان المدينة ما زالت مكشوفة جنوبا وفي مساء الغد ـ على ابعد تقدير ـ لن يمكن لكم ان تغادروا لان هذا البيت سيكون في ايدي اليهود .

وانهارت اعصاب هدى وارتمت في حضني باكية بصوت عال . وشعرت بانني اريد ان ابكي معها احر بكاء غير انني صررت باسناني ورحت اربت على كتفها . ونظرت في وجه كمال وتمنيت لو انه كان يكذب علينا هذه المرة ايضا . فهل نترك قريتنا ، مسقط رؤوسنا ، وبيتنا الحلو الصغير وكرومنا المتعرشة على النوافذ العتيقة ؟ واصحاني شهيق هدى وارتعاشها ، اختي التي ستتشرد وهي في الثالثة عشرة

وافاقت سمية من المفاجأة وانتصبت بثباتها المألوف وغمغمت :

ـ بطانية ووسادة لكل واحد . وانت يا كمال ؟ اتذهب معنا ؟

كلا . كمال لا يريد ان يذهب . وعجبت له في نفسي . ما الذي يربطه الى قريتنا ؟ لقد كان طيلة حياته انسانا هوائيا عابثا ، مروج اشاعات من صنف رخيص ، وخالق مشاحنات . وما كان فيه شيء يحب الا قلبه الطيب وحنانه الفائض . فهل تراه ينقلب الان جنديا غيورا على فلسطين كلها ؟ ايمكن ان تحدث مثل هذه المعجزة لمثله ؟

وجاء عامر وجلس الى جواري واخذ بيد هدى . ولاح

في صوته جفاف رغم ولعه الشديد بهدى :

ـ عزيزتي ، يجب ان تكوني كبيرة وتكفي عن البكاء. ان امامنا الليله سيرا طويلا على الاقدام. ولا بد لك من الشجاعة

ولكن هدى زادت نشيجا وكررت السؤال بصوت اعلى :

ـ ولكن هل نرحل حقا ؟ اترك بيتنا ؟

وفي هذه اللحظه بدا ابي يبكي وينشج . ان هناك شيئا لا يحتمل في بكاء رجل شيخ. ونهض عامر وغادر الغرفه على عجل . اما هدى فسكتت عن بكائها وركضت الى الغرفة المجاورة وجاءت ابي بكوب ماء وهدأت العاصفه بدخول سمية وهي تحمل مجموعة من البطانيات والوسائد ، القتها في وسط الغرفة . ذلك وجه الواقع يطل علينا ولا بد لنا ان نحدق فيه ونسكت عواطفنا . ونهضت لاساعد سمية على ربط الاشياء بحبل . واعترض كمال :

ـ لا تربطيها . ان كلا منكم سيحمل بطانيته ووسادته .

وصاحت هدى بانفعال :

ـ والفرس ؟ ديدي ؟ هل نتركها هنا ؟

وتلكأت ثم اضافت

ـ لليهود ؟ انهم سيقتلونها ...

قالت ذلك ثم ارتمت على كتف ابي وعادت الى النشيج. وربت ابي على راسها وقال لها وهو يبكي معها :

ـ لا يا غاليتي . سوف تأخذين ديدي معك .

وسألت سمية متى نبدأ الرحيل ؟ فاجاب كمال اننا ننتظر صافرة الانذار . فلقد حددت السلطة العربية نقطة على الحدود اذا تخطاها العدو وجب على السكان العرب ان يرحلوا .

وساد الصمت دقائق وابتعد كل منا عن الاخر مسافات. وجلست سمية صامتة لا يبدو عليها اي شيء. ماذا تراها ستفعل بكتبها العديدة ؟ اننا ندري انها اعز شيء لديها ، وليس في وسعها أن تحمل منها شيئا . ولكني لم اجرؤ على سؤالها خوفا من ان نبكي كلنا . فماذا نترك من بيتنا وماذا ندع ؟ كل ما هو لنا الان من ذكريات واشياء سوف يغيب عنا الى الابد ويصبح ملكا لسوانا . وفي مثل هذه الساعة من مساء الغد ستكون غرفتنا هذه باردة يدوسها غرباء لم نفتح لهم الباب ولم نبادلهم قط اي شيء. وادرت راسي وتمنيت لو ان هدى عادت الى البكاء لعل الغرفة تكون ملكا لي لحظات اخرى . انما نمتلك غرفنا وبيوتنا لان اصوات اهلنا تتردد فيها ، ولو بالبكاء والعويل . وحين يتبدد الصوت تصبح الجدران موحشة وتطردنا من الجنة.

وفجأة خطف في نفسي شعاع . من قال اننا سنرحل ؟ الا يجوز ان يتغير الموقف فجأة ؟ ان صفارة الانذار هذه قد لا تنطلق قط ، ومن يدريني أن نجدة ما من الجيوش العربية لن تأتي لتحمي قريتنا ؟ اما يقال ان الجيش المصري يرابط جنوبا على مسيرة خمسين كيلومترا ؟

وقاطعتني ضجة مفاجئة خارج بابنا ، وصوت عامر مرتفع بينها . وقبل ان اتبين اي شيء قفزت هدى كالغزال وهي تصيح :

ـ جاء سمير ونادرة

وقبل ان ينجلي الموضوع قال ابي متشائما وهو يضرب بيده على ركبتيه :

ـ الهي ! ولدي واسرته يجيئوننا لاجئين.

وكان ذلك حقا ، لقد جاءوا من القرى المجاورة التي كنا نحسبها آمنة . وسرعان ما اخبرنا سمير ان العدو احرق مزرعتهم وانهم تركوها ولم يستطيعوا انقاذ الفرسين والبقرات الثلاث فكان صياحها وهلعها يقطع نياط القلب. والتفتنا فجاة الى باسم الصغير ، ابن اخي ، وكان واقفا عند الباب بانكسار فلم يألف ان يأتينا ولا نطير فرحا برؤيته . واسرعت اليه وحملته على ركبتي فرأيت في وجهه خوفا مستجيرا فرحت الاطفه واحاول جهد طاقتي أن انسيه المشاهد المحزنة التي رآها وكنت احسب ان صياح الحيوانات قد آلمه فهو طفل حساس جدا عادة. غير ان هلعه كان ينبع من جهة ثانية .

ـ سعاد ؟ هل تخافين من ابن آوى ؟

ـ انه حيوان مزعج يا عزيزي، ولكننا يجب الا نخاف منه!

وقد قال على عجل وبلهجة قاطعة :

ـ اني اخاف منه . بابا يقول انه احيانا يأتي الى حوض الماء في مزرعتنا ويشرب . وعندما يعوي واسمعه اخاف واخفي رأسي تحت الوسادة .

كان يتكلم بفزع . وخطر لي ان رعبه من صياح البقرات المسكينة التي حاصرتها النيران قد تحول الى ذكريات خوفه من ابن آوى . فالاطفال يمزجون بين ذكرياتهم وعواطفهم وكأن الوجود يبدو لهم اكبر من أن ينقسم الى تفاصيل .

وفجأة قال سمير :

ـ على كل حال ، لقد اخبرني الجنود العرب على الحدود ان العدو قد تراجع مسافة عن هذه القرية :

وحدقت ضجة بيننا واحطنا به نسأل . يا الهي . اذن كان ذلك الشعاع الذي خطف في قلبي صحيحا . اذن لن نرحل عن قريتنا . والليلة على الاقل سانام في غرفتي ، والمس وسادتي بخدي وارى عريش العنب من النافذة ، ويصهل الفرس ويبدد السكون بصوته المألوف ، واسمع ديكنا يوقت بحرارة وحماسة ساعات الليل البطيئة، ولاحظنا فجاة ان الرصاص قد انقطع فقوى ذلك آمالنا واسند فرحنا . ومر بنا الخفير وبشرنا بانسحاب الجيش اليهودي وعندما سألناه عن مصدر الخبر قال ان الناس كلهم يتحدثون به . وفجأة رحت ابكي انا، لاول مرة . وتدحرجت دموع حارة غزيرة على وجهي فنهضت وفتحت النافذة لاتنفس بحرية فرأيت القمر مشرقا وبساتين البرتقال مغرقة بفيض من الضياء.

نصف الليل ، وكمال ينصرف الى منزله المجاور طالبا الينا ان ننام لننال قسطا من الراحة بعد كل تلك الانفعالات. وفي غرفتي قلت لنفسي ان قريتنا ما زالت ملكا لنا . ومن

النافذة التي تطل على الساحة الخلفية رأيت هدى، أختي الحبيبة ، تتسلل لتطمئن على راحة فرسها المحبوبة ديدي. ونام الاخرون ، الا سمية التي تقع غرفتها فوق غرفتي ، فقد بقيت اسمعها تتحرك وكانها تقوم بعمل متواصل . وطرق باب غرفتي واطل عامر برأسه وفي يده فرشة الاسنان :

ـ سعاد . لقد انداح العدو حقا . جاء الخفير الان ثانية واعملني بذلك .

وسألته ان يمر بغرفة سمية ويطلب اليها ان تنام . ثم اطفأت الضوء وسقطت في غفوة عميقة مطمئنة .

* * *

كان صوتا موحشا طويل النبرة يقطع السكون ويتكرر وافقت من نومي فزعة وسمعت نقرا عصبيا على زجاج نافذتي : سعاد ! سعاد ! استيقظي

وفركت عيني ومددت يدي الى زر الكهرباء واشعلته. ثم فتحت النافذة القائمة الى جوار سريري :

ـ سمية ؟ ماذا حدث ؟

وسمعت صوتها يرتعش :

ـ انها صفارة الانذار .

ولاول وهلة لم افهم وتبلد احساسي وذهني . صفارة الانذار ؟ من اجل ماذا ؟ ولكني تذكرت بعد لحظة . وادركت اننا سنرحل . ولم الق اية اسئلة على سمية وانما نهضت فورا ورحت اغير ثيابي. لاح لي الرحيل الان طبيعيا ومعقولا . ورأيت بعين الخيال قافلتنا تتسلق التلال الموحشة المجاورة ، واهمني امر ابي الشيخ فحرت كيف سيسير تلك المسيرة الطويلة . وجاء عامر راكضا وصاح بي :

ـ هل انتهيت ؟ ان الوقت ضيق جدا والرصاص يقترب .

ثم ذهب على عجل كما جاء . كنت اعمل بسرعة ولكن حزني كان بطيئا يتبع مقياسا اخر . وسقطت عيني على مختلف الاشياء في غرفتي ، كل ما جمعته منذ طفولتي واعطيته من نفسي وذاكرتي . لا ، هذا ليس لي ولست املك اكثر من البطانية والوسادة . ان علي ان اساعد في حمل طفلي اخي فهما اثمن من كل شيء يحمل .

ثم عادت صفارة الانذار تصرخ صراخا مفزعا اشد مما صرخت اولا ، واختلط بها دوي رصاص وقنابل . واحسست بقشعريرة باردة تسري في ظهري. ولاح لي السؤال بليدا : لماذا يأتي اليهود ويأخذون ارضنا منا في اعماق الليل ؟

وجاءت هدى وهي تحمل اسامة الابن الاصغر لاخي . كانت مبتسمة ، عالية الروح ، وكأن دنو ساعة المحذور قد ازال دموعها . وسألت ان كان هناك ما تساعدني به فارسلتها الى نادرة زوجة اخي. لقد آثرت ان اكون وحيدة لحظات قبل ان نرحل. ولم آخذ من غرفتي الا قرآنا ذهبيا ذا سلسلة كانت امي قد اهدتني اياه في أخر سنوات حياتها . فشددته حول عنقي وغادرت الغرفة بعد ان اطفأت الضوء. ووقفت في الباب وتساءلت : هل اقفلها ؟ وكانني نسيت انها لم تعد ملكي . ولكني اخيرا اقفلتها . كانت الاكرة باردة جدا وقد تراكمت رطوبة الليل عليها . وشعرت وانا اغلق الباب انني اقفل قفل فلسطين كلها واقف مطرودة من الجنة . والصقت خدي المشتعل بالخشب البارد المرطب . وتحدرت عبرات ساخنة على وجهي وسالت في عنقي ودخلت في سلسلة القرآن . وداخلني شوق مفاجيء الى امي التي ماتت منذ عشر سنين وسمعت نفسي ابكي واكرر « ماما ـ ماما ـ »

وارتفع صوت خطوات خفيفة سريعة خلفي فالتفت . ذلك باسم الصغير وقد ارتدى ملابسه كاملة واقبل علي :

ـ سعاد ، لماذا تقفين هكذا ؟

كان صوته دافئا مملوءا بالحنان . ترى يستشعر طفل عمره اربع سنوات الم الرحيل ؟ وانحنيت وحملته بين ذراعي وانا اشعر ان مجيئه في تلك اللحظة كان عناية الهية او كأن امي تستجيب لي. وحين شعر بدموعي على وجهه لاحت نظرة خوف عليه وسألني مترددا :

ـ لماذا تبكين ؟

ولم اجد شيئا ارد به فقلت له :

ـ لانني يا عزيزي هنا وحدي

فما كان منه الا أن طوقني بذراعيه الصغيرتين وقال :

ـ ولكنني جئت اليك . انني احبك

واخرجت المفتاح من الباب وسرت . وبقي باسم ساكتا ونحن نخترق القسم الخارجي من المنزل . وقلت لنفسي ان كل الاشياء التي سنتركها هنا هينة ما دام هذا الصغير سالما آمنا وما دمنا احياء جميعا لم يقتل منا احد والحمدلله. ان علي الان ان احرص على سلامة هذا الصغير البريء الذي لا يدري على حافة اي مستقبل مظلم يقف الليلة ونحن نغادر وطننا هاربين.

ورأيت اهلي متجمعين في الظلام ينتظرونني ... كان كل منهم يحمل بطانية ووسادة في يده ، وقد جاء كمال مودعا ومساعدا . وكان الفرس مسرجا وقد حملوا عليه بعض الطعام والماء وملابس للصغيرين . وانزلت باسم الى الارض وقال ابي مصدرا اوامره على عادته :

ـ تعاونوا على حمل الاشياء ولا تثقلوا الفرس ، سمير انت سوف تحمل باسم .

وانبرى باسم وقال بلهجة عصبية محتجة :

ـ وأنا ماذا سأحمل يا جدي ؟

لقد اصر على ان يحمل شيئا ما هو ايضا . وكنا ندري انه عنيد ، والوقت ضيق ، فقررنا ان ننزل عند رغبته . واقترحت امه ان يحمل فرسه الخشبي الصغير ولكنه رفض ذلك باباء واراد أن يحمل شيئا نافعا يساعدنا به .. وسرعان ما صاح :

ـ عرفت يا ماما . ساحمل زجاجة اسامه . ألن نسقيه الحليب عندما يجوع في الطريق ؟

وقالت امه بلهجة صارمة :

ـ كل شيء الا هذا ، لن تحمل انت الزجاجة . انك سوف تكسرها فيبقى « أس أس » جائعا .

وكانت مفاجأة لنا ان باسم انفجر يبكي بكاء صارخا. وانحنى ابي وحمله بين ذراعيه :

ـ ولكن ما بك يا حبيبنا ؟ الم نقل ان الولد العربي لا يبكي ابدا ؟

واجاب وهو يواصل البكاء وكلماته تتقطع :

ـ ان الولد العربي يساعد الناس . فلماذا لا اساعدكم ؟

وهمست نادرة لي:

ـ لقد بدأ يصبح حساسا منذ غادرنا منزلنا وسمع صراخ الحيوانات ورأى الحريق . خير لنا ان نجازف ونعطيه الزجاجة . ان هناك واحدة اخرى احتياطية ، ساضعها في خرج الفرس .

وشعرت بحرقة الم تعبر في قلبي. الصغار اذن يشعرون بالم الرحيل وان لم يدركوا ذلك تماما . ترى باسم يبكي من اجل الزجاجة حقا ؟ ام أنه يتعلل ليبكي الرحيل ومشهد التوديع ؟ وفي هذه اللحظة ذهبت اليه امه بالزجاجة ومرت بسبابتها على خده وجرفت قطرات الدمع عنه وقالت له وهي تدلعه :

ـ هل هو يبكي حقا ؟ تراه صغيرا مثل اسامة اذن ؟ ها نحن نعطيه الزجاجة على كل حال وسوف يساعدنا على حملها لان الولد العربي ، كما قال لنا « جدي » ، يساعد الناس . انه ولد باسل .

وشهق الصغير شهيقا متقطعا وكأنه عاصفة قد بدأت تهدأ ثم تنهد وقال بلهجة جازمة :

ـ اني كبير !

ـ ولكنك لن تكسر هذه الزجاجة . هل تعد ماما ؟

قالت ذلك وقدمتها له فلتقفها بلهفة وقال :

ـ كلا . سأمسكها بيدي الاثنتين

ثم أطبق اصابعه السمراء على الزجاجة . ولعل هذا المشهد قد استثار عواطف كمال فاندفع ينشج وقال بصوت مخنوق بالعبرات :

ـ اذهبوا ، يحرسكم الله . اني باق هنا . ولسوف تعودون كلكم قريبا . هذه أرضنا وحقولنا ولن نعطيها لليهود .

وردد ابي بلهجة متشائمة :

ـ ان شاء الله

وانهال وابل من الرصاص في هذه اللحظة من نقطة قريبة . وفزع الفرس فصهل عاليا ووقف على قائمتيه الخلفيتين وتدحرج الحصان الخشبي وانكسر الى قطعتين. وصاح ابي

ـ كل لحظة نقضيها هنا تقربنا من الخطر . فلنرحل فورا . اين سمية ؟ لماذا لم تحضر بعد ؟

واسرعت الى غرفتها في الطابق الثاني فرأيتها تقفل حقيبة يدوية صغيرة وفي ملامحها اسى عميق لم أر له مثيلا سابقا في وجهها . وقالت وكأنها تعتذر :

ـ لم احتمل ان اترك كل كتبي هنا فحملت اهمها .

ـ سمية ، عزيزتي ، ان الكتب تعوض . ولسوف تثقلك هذه الحقيبة وتعرقل سيرك .

وقالت سمية تائرة وهي تكاد تبكي :

ـ الكتب تعوض ؟حقا ! ولكن هذه كتبي انا يا سعاد ، وبين صفحاتها ، عل كل سطر فيها، وكل حاشية ، حياتي. وما من شيء يعوض حياتي .

ولم يكن لنا وقت نناقش فيه فساعدتها على اقفال حقيبتها وقلت لها بحزم :

ـ هيا بنا . ان العدو يقترب بسرعة .

* * *

وانطلقت قافلتنا في الظلام . كنا نسير على عجل ، كل يحمل بطانيته ووسادته في صمت . ويممنا نحو الجنوب ، صوب قطعات الجيش المصري . تسعة اشخاص سيكونون منذ هذه اللحظة بلا ماوى ولا ارض . ان وقع خطانا هنا موحش لان هذه ارض فلسطين التي لم تعد لنا ، وظلالنا تجر نفسها وراءنا جرا . ولاحت لي اشخاص اهلي هياكل مهمومة محنية الظهور فكانها تحمل عذاب المشردين منذ بدء الخليقة . وسمعت ضجة قريبة ، فاذا جيراننا قد بدأوا يخرجون . كل اسرة تحمل فانوسا صغيرا مضاء . ولاحت لي الفوانيس رموزا للاسر التي تبدأ اللحظة تاريخ تشردها . واحصيت اربعة فوانيس .

وبدأنا ننحدر في حي مظلم تحيط به بيوت ساكنة مطفأة الاضواء . لا بد ان يكون سكان هذا الشارع قد رحلوا قبلنا. وفجأة صرخت هدى :

ـ انظروا هناك . انظروا جميعا .

وفي تلك اللحظة تأججت في منعطف الشارع نار ساطعة باهرة فاجأتنا واعشت عيوننا.ثم سمعنا صوت انفجار مروع وتصاعدت النيران الى عنان السماء واحسسنا وجوهنا تلفح لفحا شديدا . وقبل ان نفيق من ذهولنا صرخ سمير صرخة لائعة مفجوعة :

ـ باسم !

كان ما وقع مباغتا لنا كلنا . فعلى مقربة منا اندفعت شعلة نار متأججة طائرة في الهواء تعبر بسرعة شديدة. واذ مرت بنا التقطت في وهجها الملتهب باسم الصغير الذي كان يسير في اقصى الطرف قريبا من والده . وتأجج حبيبنا الغالي لحظات في تلك النار وهرعنا اليه في جنون نطفيء ثيابه المشتعلة ، ونجح ابي بان لفه بعباءته السميكة فانطفأت النار ، ونظرنا اليه فاذا هو ينازع وقد اصيب بحروق مخيفة في جسمه كله . ولكنه كان واعيا فراح يصرخ صراخا متقطعا :

ـ ماما ... ماما ... ماما .

كان واضحا لنا كلنا انه لن يعيش اكثر من دقائق . فقد احرقت الشعلة جلده واكلت خده الايسر وعنقه . وقد التصقت قطع من جسمه المتأكل بعباءة ابي. وصرخت سمية بلهجة آمرة هائلة :

ـ اركضوا فورا . احملوه واتجهوا يمينا . لقد اشتعل مخزن البنزين .

واطعنا كلنا فورا وكأن منوما يسيرنا . ركضنا وركضنا وابي يحمل الضحية الاولى ، اول جزء حي منا ندفنه في ارض المعركة .

وعندما بلغنا تلا فصل بيننا وبين النار ، ولمسنا الارض التي تحمينا ارتمينا بقلوب دامية حول ابي نستطلع حياة الحبيب الصغير الذي اكلته النيران .

وكشف ابي العباءة ، ونظرنا ، في جنون، فاذا صغيرنا الغالي ما زال يختلج . كانت عيناه السوداوان الجميلتان مفتوحتين وقد راحت دموع غزيرة تتحدر من زاويتيهما وتسيل بلا انقطاع . وكان ساكنا ما عدا ارتعاش اطرافه. ونظر الى وجوهنا واحدا واحدا دون ان ينطق ثم استقرت نظراته المحمومة على وجه امه وتوقفت هناك . ورأيناه يحرك شفتيه لكي يتكلم ، والظاهر أن الشفاه المحترقة اوجعته فمرت موجة عذاب هائل على قسماته . وقالت له امه وهي تجهش بالبكاء :

ـ لا تتكلم يا حبيبي . ماما معك .

غير ان ذلك لم ينفع . فان الطفل المحتضر عاد يحاول الكلام حتى قال بعد جهد :

ـ ماما ...

ورأيناه يحاول ان يتحرك وكانت احدى يديه مخفية تحت طرف العباءة ،و فجأة حركها بقوة بعد ان بذل مجهودا ونظرنا مندهشين فاذا هو يمد كفه الصغيرة الى امه بزجاجة الحليب وهو ممسك بها بكل قواه ، وارتعش صوته مرارا حتى قال :

ـ ماما ... لم اكسرها .

واخذتها امه منه فارتعش بحدة واغمض عينيه. ونظرت اليه دون ان افهم . ورأيت ابي يرد عباءته على الجسد المحترق ويقول بأسى :

ـ انا لله وانا اليه راجعون .

اما نادرة ، امه ، فقد بقيت ذاهلة لحظة ثم صاحت بصوت مفجوع :

ـ مات ؟ مات ابني ؟

وارتمت هدى على التراب ، بطولها كله ، وراحت تمرغ وجهها فيه وتصرخ :

ـ مات باسم ؟ اتركوني هنا ، اتركوني . اني اريد ان اموت .

كان الفرس واقفا على مقربة في جمود ساكن بعد ان قطع معنا المسافة التي ركضناها . وعلى صرخة هدى رفع قائمته الامامية اليسرى ثم حرك احدى أذنيه واطرق .

ثم جاء مشهد موجع . نادرة تبكي متوسلة الى ابي ان يعطيها طفلها الميت لتودعه . وسمير يرفض ذلك ويحول بينها وبين ابي والطفل . وابي يقترح ان يدفن الميت لنواصل السير . وهنا ترفع هدى وجهها المصفر بالتراب وتصيح صياحا هستيريا :

ـ تدفنونه؟ قبل ان نتأكد من موته ؟ هل يدفن باسم حيا يا الهي ؟ هل تدفنونه قبل ان يموت ؟

وصاح بها ابي في عصبية بالغة منتهرا :

ـ لقد مات . اولا اعرف الموت بعد ؟ الم يكفني ما رأيت منه طيلة عمري ؟

ولكن هدى زادت صراخا ولاح انها فقدت صوابها وبدأت تهذي :

ـ ابي ، انك قاس جدا ، ان قلبك من حجر . انك تعاملنا بلا رحمة . لا بل انك سوف تدفننا احياء جميعنا.

ثم راحت ترتعش ارتعاشا هستيريا وواصلت الهذيان :

ـ يا صديقي الصغير ، ان هدى لن تخونك . سوف احملك انا وحدي واسير بك ساعات ، حتى تموت . والا فسوف ابقى هنا معك واموت .

وذهب عامر وركع الى جوار هدى محاولا ان يهدئها وقد لاح لنا انها اصيبت برجة عاطفية. والواقع ان الصغير كان هامدا ، ميتا كل الموت فليس بعد ذلك موت يمكن ان يكون . كانت النار التي اكلته بنزينا ضاريا فقضت عليه بسرعة . وتذكرت فجأة دموعي على خده الصغير وصوته الحنون وهو يهمس لي :

ـ ولكنني جئت اليك . انني احبك .

كنت انا الحرية بان ارتمي على التراب واموت . ولكن هل املك انا ان اموت الان ؟ من اذن لهذه القافلة البشرية المعذبة ؟ من يسير بهم سواي انا ؟ لا بل ينبغي ان ننهض ونواصل المسير . وسرعان ما ستهدأ اختي الصغيرة المسكينة ، ويشرق الضياء على قلب الابوين الكسيرين .

ـ فلندفن الطفل

همسها ابي همسا هذه المرة . وقال له سمير برفق :

ـ ابي ، هل انت واثق من انه قد مات ؟

وفقد ابي اعصابه فجأة وصاح :

ـ خذ ابنك يا سيدي ، وانا ذاهب وحدي. سمية ، اتبعيني ..

وحاول النهوض فشعر فجأة بثقل الجثة الصغيرة بين ذراعيه . ورده ذاك الى هدوئه فجلس على الارض وراح يبكي بكاء لاعجا وهو يردد :

ـ لك الحمد والشكر يا ربي .

ونهضت سمية وانحنت على ابي بوجهها المرطب بالعبرات وتوسلت اليه :

ـ ابتي ، ليس هذا وقت نثور فيه ونفقد اعصابنا . لقد فقدنا كلنا احب انسان الينا منذ لحظات فلنحتمل بعض ما يصدر من هذا وذاك منا .

كان واضحا لنا اننا جميعا في حالة من العذاب المميت ولم يعد احدنا يحتمل حتى عبء نفسه . ولكن سمية وحدها بقيت مرفوعة الرأس لا تنهار ولا تضعف .وسرعان ما اقترحت علينا برفق رؤوم ان نحمل الطفل مسافة اخرى ارضاء لعواطفنا جميعا حتى اذا تأكدنا من موته دفناه!

ولم يعترض أحد . كانت سمية تقودنا دائما فلا يخالفها

احد . ورأيتهم ينهضون وسمير يحاول مساعدة نادرة على السير . وتناول عامر اسامة فحمله . اما انا فذهبت الى هدى التي كانت لم تزل نائمة تبكي في سكون ووجهها في التراب .

ـ هدى ، حبيبتي ، لا بد لنا من المسير . ان الرصاص يقترب منا .

وقد كنت اتوقع ان ترفض طلبي ، ولكني رأيتها على العكس تطيعني فتنهض في انقياد تام ، وتنفض التراب عن شعرها المسترسل بهزة من رأسها . كان هناك تراب كثير على خدها وشفتيها وقد اختلط بدموعها . فشعرت بعطف هائل عليها ، عطف لم اشعر بمثله قط نحو انسان ، فضممتها وبكيت . لا اظن ان هناك صبية في مثل بسالة اختي الصغرى هدى ، وفي تلك اللحظة كانت انبل منا جميعا . ورأيتها تسير متعثرة وهي تكاد تسقط حتى اذا بلغت بطانيتها المطروحة على التراب انحنت ورفعتها ثم تناولت حبل الفرس وبدأت تسير . وحين اطمأننت عليها لحقت بنادرة التي كانت لا تقوى على السير .

وبدأ موكبنا يسير نحو قمة التل في طريق يرتفع دائما نحو الجنوب . ولاحت الاشجار موحشة خاملة على جانب الطريق . واضاءت سمية الفانوس وتقدمتنا وعندما وصلنا القمة ونظرنا خلفنا رأينا منظرا رهيبا لا ينسى: قريتنا تحترق وقد امتدت النار الى منزلنا . ولا ادري لماذا لم اعبأ بذلك كثيرا ، وانما لاح لي ان هناك منظرا اشد ايلاما للقلب الانساني ، منظر هدى وهي تسير وراءنا جميعا تجر الفرس وتنتحب بصوت مسموع لا ينقطع .

* * *

على قمة التل دفنا صغيرنا الميت في بقعة تراب هش . وحفر القبر ابي بيديه الاثنتين لاننا لم نملك شيئا نحفر به . وجلس سمير عاجزا يبكي ولا يصنع شيئا . اما نادرة فقد اغمي عليها فاستراحت . ورفض ابي ان يضع الجسد في التراب الا اذا قرأ احدنا بعض آيات القرآن ، وكان أبي يعتقد انه لا يصح له هو ان يفعل ذلك . وكان عامر يحفظ جانبا من سورة البقرة فتلا آيات قليلة اقسم لي فيما بعد انه لم يعتمد اختيارها وانها كانت الايات الوحيدة التي تذكرها : « يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون . صدق الله العظيم . » ثم صلى ابي ركعتين واشار الي بأن آخذ هدى بعيدا . ومرة ثانية طاوعتني هدى فاخذتها الى منحدر قريب وجلسنا نبكي كلانا ولا ننطق . وبعد فترة قصيرة اقبلت سمية وعيناها حمراوان وقالت :

ـ هيا بنا . سوف نسافر

كان هناك على قمة التل مرتفع صغير من التراب وقد وقف ابي متجها صوب القبلة ، وحرك شفتيه ببعض كلمات لم اسمعها . وكانت زوجة اخي قد افاقت ورأت جانبا من عملية الدفن ، وهي صامتة لا تبكي وكأن ذروة المصيبة تمنح المفجوع هدوءا لا يفسر . وركعت الى جوارها ورحت ادلك لها يدها الباردة وحمدت الله على هدوئها . وفي تلك اللحظة عوى ابن آوى عواء طويلا موحشا على مقربة منا . وصرخت نادرة صرخة حادة :

ـ ابن آوى !

ثم اغمي عليها ثانية . وراح سمير يبكي في حرقة . ولم يفهم احد سواي ماذاكان تأثير صراخ ابن آوى عند القبر الجديد . سنتركه منفردا ونذهب بعد لحظات . وشكرت الله على ان هدى لا تعرف شيئا عن ذلك .

وباغتنا انثيال الرصاص وانفجرت عدة قنابل عالية وافاقت نادرة وتعاونا انا وسمير على اسنادها فنهضت معنا وسارت . وتقدمتنا سمية بالفانوس . وكانت هدى على مقربة مني فرأيتها تنحني وتلتقط شيئا ثم قالت لي:

ـ حقيبة الكتب . لا بد ان سمية نسيتها هنا .

وكادت تضعها في خرج الفرس . فامسكت بيدها :

ـ اتركي هذه الكتب هنا .

ـ ولكنها كتب سمية ؟

ـ ادري . لا بد انها لم تعد تريدها . فان سمية لا تنسى شيئا .

ونشجت هدى نشيجا هادئا وقالت :

ـ اجل . اني بليدة . هل في الدنيا بعد باسم شيء عزيز؟

قالت ذلك ورمت حقيبة الكتب فتدحرجت كثيرا على المنحدر حتى خيل الي انها سقطت في اعماق الوادي .

وبدأنا نسير ، على منحدر التل هذه المرة . والتفت الى الوراء اخر مرة فرايت فوانيس عديدة تصعد التل نحونا . لقد داهم الحريق القرية فخرج سكانها كما تخرج النمل مروعة حين نسكب الماء على بيوتها . كان سفح الجبل مفروشا بالفوانيس ، تلك الرموز المتحركة لكل ما هو فلسطين .

وبدأ فجر حزين يطلع على الدنيا .

نازك الملائكة

بغداد

الحركة اللغوية في لبنان

كتاب جديد

لامين نخله

يطلب بالجملة من دار الثقافة في بيروت ومن جميع المكتبات في البلاد العربية

السعر ليرة لبنانية او ما يعادلها